الرئيس ماساريك

رجلان أعزلان بنيا دولة من دول اوربا الحديثة ، بنياها في قلوب القوم وفي حجر المدارس ، قبل أن يرسماها على الخرائط الجغرافية ويعينا حدودها ويقيما لها برلماناً ووزارة . الأول شيخ في الخامسة والثمانين من العمر ، جمع بين حكمة الفيلسوف وصدر الوطني العامر بأعلى الأمثلة الوطنية التي أصبحت أعصاراً مكتسحاً في القارة الاوربية . والثاني تلميذ الاول ، تلقى عليه العلم في حجر التدريس ، واقتبس منهُ شعلة من تلك النار المقدسة التي تؤجج في صدره ، فكان له خير معوان ، في حمل تلك الشعلة ، والكفاح في سبيلها ، ثم تولى معه مقدرات الدولة الجديدة التي بنياها ، فسيّر دفتها في بحر مضطرب عجاج ، من السياسة الاوربية ، الى أن بلغا شاطىء السلامة

الاول هو الرئيس توماس ماساريك الذي انتخب في السنة الماضية رئيساً للجمهورية التشكوسلوفاكية للمرة الثالثة وينتظر ان يحتفل ببلوغه الخامسة والثمانين في ٧ مارس (١٩٣٥) . والثاني هو الدكتور ادوارد بنش وزير خارجية تشكوسلوفاكيا الذي بلغ الخمسين من العمر وقد مضى عليه ست عشرة سنة وهو يدير سياسة بلاده الخارجية في براعة وحكمة شهد لهُ بهما العدو قبل الصديق مع أنهُ كان يوم تقلدها لا يعدو الرابعة والثلاثين من العمر . فهو عميد وزراء الخارجية في اوربا بل في العالم لانهُ تقلد هذا المنصب تقلداً مستمراً مدة تفوق مدة أي وزير خارجية آخر

ودستور الجمهورية التشكوسلوفاكية يحظر انتخاب رجل لرآسة الجمهورية ، اكثر من مرتين ومدة كل رآسة سبع سنوات . ولكن الدستور استثنى ماساريك من هذا القيد ، ونصَّ على امكان انتخابه رئيساً مدى الحياة ، احتراماً لجهاد هذا الشيخ الجليل ، واعترافاً بما لهُ من أياد بيض على انماء الشعور القومي في قومه ؛ ثم عدم اقتصاره على الناحية النظرية فلجأ الى الحلول العملية يجاهد في سبيلها حتى غنم الاستقلال ، ثم قام على دفة السفينة يوجهها التوجيه الطيب . وكذلك بنش تلميذه. لقد قامت وزارات في تشكوسلوفاكيا وسقطت وزارات ولكن بنش كان وزيراً للخارجية في كل منها ، وليس هذا لقلة الرجال الذين يستطيعون شغل هذا المنصب في الجمهورية الفتية ، بل لأن استعداد بنش العقلي والثقافي وجهاده الصحيح في سبيل الاستقلال ، والمقام العظيم الذي فاز بهِ بين وزراء الخارجية في مجامع الدول ، تجعل منهُ الكفء الذي تود أعظم الدول لو كان وزراء خارجيتها من مكانته

أنشئت الجمهورية التشكوسلوفاكية في عواصم الحلفاء ، في باريس ولندن ووشنطن ؛ قبل أن تنشأ في براها (براج) . ذلك ان الاستاذ ماساريك — وكان قد مضى عليه وهو يرعرع الشعور القومي نحو ٣٠ سنة من كرسي الاستاذ في جامعة براج لانهُ كان يرمي الى إعداد الشعب من فلاحهِ الى عامله الى موظفه الى تاجره الى أعلى طبقاته الاجتماعية الاعداد الوافي للنهوض بالحكم الدمقراطي المستقل

عندما تسنح الفرصة — كان قد فرّ من بلاده في خلال الحرب الكبرى ، لاشتداد وطأة الحكومة النمساوية ، وكانت بلاد ماساريك جزءاً منها حينئذٍ ، على الاحرار في بلاده ، ولكنهُ لم يفر فرار جازع يطلب العيش الرغد والفراش الوثير ، بل فرار رجل يطلب الحرية لقومه ، ويعرف — وهو الاستاذ الذي نفذ الى مغازي التاريخ — ما قد يلقاه دونها من العقبات والمتاعب . فبذل هو وتلميذه السابق ، وزميله في الجامعة بعدئذٍ ، الدكتور بنش ، كل جهد وكل سعي في سبيل اقناع الحلفاء المنصرفين حينئذٍ الى امورهم العسكرية والسياسية المرتبكة ، ان في قلب اوربا ، وفي قلب امبراطورية النمسا والمجر بلاداً تدعى تشكوسلوفاكيا يقطنها شعب يطلب الحرية ، شعب لهُ ماض مجيد ، وله ثقافة عالية ، ومستعد ان يبذل في سبيل حريته ارواح ابنائه في تأييد الحلفاء

فرعا كل باب وخاطبا رجال الصحافة ورجال السياسة ورجال الحرب حتى استرعيا العناية بمطالبهما بقوة ارادتهما ، وتوهج وطنيتهما ، فنظما فرقاً من التشكوسلوفاكيين المقيمين خارج بلادهم لتخوض غمار الحرب الى جانب الحلفاء . لذلك قلنا ان الجمهورية التشكوسلوفاكية انشئت خارج براج اولاً ، لأن استقلالها اعلن ، وبراج عاصمتها ، ما تزال مدينة من مدن امبراطورية النمسا والمجر

اما بنش التلميذ والوزير والزميل في الكفاح ، واليد اليمنى في الحكم ، فولد من نحو خمسين سنة ، وطلب العلم في بلاده اولاً ثم في باريس ، فلقي في المعهدين مصاعب ومشاق ، كانت لولا ارادته الصلبة تغلبت عليهِ . ثم عاد الى بلاده للتدريس . وكان اجتماعه الاول باستاذه ماساريك قد حرّك في نفسه الشعور الوطني ، ونفخ فيهِ حب الجهاد في سبيل تحرير وطنه من نير النمسويين . فكان يلقي المحاضرات في الجامعة ويكتب الفصول في المجلات ، وهو في خلال ذلك كله يستعد ليوم العتيد . فلما نشبت الحرب الكبرى ، بدأ الظلام ينقشع عن آماله التي وراء الغمام . ولكن أمته كانت في موقف حرج جداً ، لان النمسا وحليفتها المانيا ، أحرزتا الانتصارات الأولى في معارك الحرب الكبرى ، فبثّت الحكومة النمسوية العيون والارصاد تراقب حركات زعماء التشكيين وسكناتهم

أما هؤلاء فكانوا في حيرة وارتباك . فاذا انتصرت المانيا وحلفاؤها في الحرب ، فرُدّت هذا الانتصار عليهم ما يطلبون من حرية واستقلال . واذا كان النصر حليف الحلفاء ، فيجب عليهم كزعماء ، ان يسرعوا الى وضع خطة رشيدة يسترعون بها انظار الحلفاء ، قبل ان يفوت الوقت

ولكن بنش لم يتحير ولم يرتبك . كان في خلال تقلده منصب الاستاذ ، قد اشترك في جمعية سياسية سرية في بلاده ، وجازف بحياته غير مرة ، في مطلع الحرب ، لكي يذهب الى سويسرا لمفاوضة الاستاذ ماساريك وكان ماساريك مقيماً هناك بعد فراره في مطلع الحرب ، فكان بنش بذلك صلة بين الزعيم البعيد عن وطنه ، والزعماء المتخلفين . ولما علم في احد الايام ان البوليس في اثره ، غادر بلاده في ليلة ليلاء وجاء الى باريس

قد يصعب الآن ان ندرك ما عاناهُ بنش من المصاعب في البدء ، لان اكثر الساسة والصحافيين ،

كانوا يجهلون ما هي الأمة التشكية التي تطلب الاستقلال، وكانوا لا يدركون قيمة انضمامها الى الحلفاء وما أثر ذلك في سير الحرب، لان الانظار كانت متجهة في الغالب الى الميدان الحربي في الجبهة الغربية. فمن هو هذا الشاب، في الثلاثين من العمر، الذي يجرؤ على قرع الابواب، طالباً الدخول الى مجالس الحلفاء، حيث القواد تعلو جباههم سمات اليأس وحيث رجال السياسة مسلبو الافكار مضعضعوها؟

ولكنهُ مضى في الكفاح، هو واستاذه ماساريك، واخيراً فازا بمقابلة بريان، فأسفرت المقابلة عن وعده بالنيابة عن حكومة فرنسا، بمد يد المساعدة الى الامة التشكية التي تطلب الاستقلال

***

كان الحلفاء قد اعدوا هجوماً عظيماً في منطقة «الصوم» فأسفر عن خيبة. وإذ الحلفاء يضربون أخماساً لاسداس، ظهر كتاب في باريس فاسترعى عنوانه نظر الناس لان موضوعه كان «اضربوا النمسا». وكان مؤلف الكتاب صاحبنا بنش، وقد بسط فيه خطة حربية جريئة، قال: «المانيا المانيا في اضعف مقاتلها، انهضوا الشعوب الصقلبية في اوربا الوسطى، اقيموا حاجزاً بين المانيا وحلفائها، افصلوا المانيا عن بلغاريا وتركيا وكذلك يبيد الحلم التوتوني كما يتبدد الدخان في عاصفة»

فأقبل ساسة الحلفاء على الخطة. وزالت المصاعب من وجه المكافحين الوطنيين التشكيين، وفي اواخر سنة ١٩١٧ اعترف الحلفاء بالمجلس الوطني التشكي اعترافاً رسمياً

ان فكر ماساريك هو الفكر الذي نظم الحركة، وروحهُ هي التي بثت في صدور الشعب التشكوسلوفاكي — وهو مظلوم مرهق — بارقة الرجاء، واشعلت نور الامل. ولكن السيف الذي فتح امامها الطريق كان سيف بنش، فانتخب ماساريك رئيساً للجمهورية، وبنش وزيراً لخارجيتها. كانت اتوضى ضاربة أطنابها في اوربا الوسطى حينئذٍ، وكان شبح البولشفية يحوم فوقها، والنعرات القومية تهدد بالانحلال والتفرقة، ولكن تشكوسلوفاكيا امة منظمة اليوم، لم تفرقها النعرات، وقد أصبحت وهي اعوان وحلفاء، ولوزير خارجيتها كلمة عليا في شؤون اوربا الوسطى، ومحافل السياسة الدولية، كجمعية الامم ومؤتمر نزع السلاح ومجلس الاتفاق الصغير

بل هناك ما هو ابعث على الامل. ان هذه البلاد الفتية، بفضل الاستعداد الطويل للحياة الديمقراطية، لا تزال من البلدان القليلة في اوربا المحتفظة بالنظام الديمقراطي. ولعل فلسفة رئيسها الشيخ الجليل تلخص في قوله «لقد كثر الحديث في العهد الاخير عن عجز النظم الديمقراطية. ولكن الديمقراطية لم تخفق. بل هم الرجال الذين اخفقوا. ويجب ان لا ننسى ان الحكومات الملكية والدكتاتورية نفسها قد لقيت من المصاعب ولا تزال تلاقي منها، ما يجعل الحكم على الديمقراطية بالعجز سائراً عليها كذلك» وقوله: «ان اوربا تجتاز فترة مريضة في حياتها العامة ولا تلبث الامم ان تخرج من ظلماتها الى وضح الحياة الدستورية السليمة»

امدَّ الله في عمر الشيخ الجليل فانهُ في كلماته العاشاً للنفوس الحرة التي تأبى الارهاق والاستبداد